

ع الماشي!



26 مارس 2020 - 08:06

حسن البطل

شخطبت ذات مرة (ذات سنة)، أو شطحت (شطح قلمي) كلمات تقارب الشعر، أو تشبه الفلسفة (أو السفسفة) هاكم هي: «يمشي المكان في المكان إلى المكان / وأنت يمشيك الزمان».

أمشي في شارع ركب (رسمياً: الشارع الرئيسي لمدينة رام الله).

رصيف الشارع صار مرصوفاً ومستوياً ومتألفاً، ولم يعد كما كان ذا مطبات وعثرات تتعثر أقدامك (تتدركم) خطواتك بها أو تتزلق إن تبللت بماء مطر الشتاء. الشارع صار شجراً، والتزمت حوانيته بأمر البلدية، وخلعت عن رؤوسها مظلات «مركبة» .. وفي الخلاصة، لم يعد شارع قرية لم تعد قرية. ولم يصبح، بعد، شارع مدينة صارت مدينة.. وتسير إلى حاضرة؟

كراكيش أبو خالد

دكانته آخر دكاكين قديمة للشارع الرئيسي. اسم المحل «نوفوتيه منصور» وصاحبها العجوز يكتى أبو خالد. عنده، وحده، تجد حوائج تحتاجها من إبرة الخياطة حتى المقص، ومن الخيوط والأزرار، حتى أمشاط الشعر وفراشيه (للشعر وحلاقة الذقن) والمرايا.. وجميعها ذات توضيب فوضوي للناظر وليس لأبو خالد! كانوا يقولون: دكانة، محل، بقالية صاروا يقولون: ميني ماركت، سوبرماركت، مول، ميني مول.. ونوفوتيه أبو خالد هي كل هذا باستثناء الأغذية والملابس والأحذية. أي كل ما يلزم البيت البسيط من حوائج بسيطة.

كتبت عن «كراكيش» العجيبة الزميلة نائلة خليل ريبورتاجاً طريفاً، عن آخر أيام دكاكين رام الله الغابرة، ونسيت شيئاً: هو الوحيد الذي يرفع العلم الفلسطيني في مقدمة حوائج متنافرة، بالإضافة إلى محل زيت وزعتر للمعجنات والمخبوزات (كان محل أحذية، ثم مقهى).

على جانبي محله الغريب محلان، واحد من شماله وآخر من يمينه يرتديان آخر حلة في تصميم ديكورات المحلات، للملابس الجاهزة، ولأجهزة الاتصالات. زمان غابر يجاور زماناً حاضراً.

«يمشي المكان في المكان إلى المكان / وأنت يمشيك الزمان». يمكن لأبو خالد أن يبيع أو يؤجر محله بما يكفيه من مال لما تبقى من عمره، لكنه شَبَّ على شيء وشاب عليه.. ورام الله شائبة وشابة في آن!

«المدرسة الهاشمية»

مبنى جميل لعمارة قديمة من طابق واحد، لعلها كانت المدرسة الأولى في المدينة، وصار تلاميذها من وجهاء المدينة وأعيانها وأعلامها، أحدهم عبد الجواد صالح وقاد احتجاجاً ضد فكرة لرفع عمارة تجارية عالية مكان المدرسة الواطئة، أو عمارة ضيقة تحجبها عن الشارع. وأخيراً، وجدوا حلاً إبداعياً. عمارة عالية خلفها، وإزالة السور من أمامها، ما يبرز جمالها المعماري وفرادتها، وهندسة جميلة لباحثها وتشجيرها. هكذا، يمكن لحانوت أبو خالد، عندما يموت، أن يرتدي زياً جديداً هو آخر صرعات تحديث و«تمويض» محلات وحوانيت الشارع الرئيسي. .. ويمكن للمدرسة الجميلة والقديمة المهجورة أن تتألف مع وجه جديد للمدينة، وتصير متحفاً أو مشروع متحف لنشاط اجتماعي أو ثقافي جديد.. قليل من القديم وكثير من الجديد.

شارع القدس

كما غيروا اسم «ساحة الساعة» إلى «ميدان ياسر عرفات» ولم تتغير ألسنة الناس، كذلك غيروا اسم شارع القدس، الذي يبدأ من ساحة المنارة (لن يغيروا اسمها قط) إلى «شارع فلسطين». ألزمو محلات ودكاكين الشارع بشيء من التنظيم، وتحرير الأرصفة من «أكياس البقوليات» وأيضاً زرعوا النخيل وجذوع أشجار الزيتون المعمرة.. والأهم، حدائق صغيرة عند أجنحة ومنحنيات الشارع ذات نباتات هشة ومزهرة، محمية بحاجز معدني.. لا يدافع عنها! هذا يليق بشارع، لكن لا يناسب شارعاً لباعة الخضراوات وبسطاتها، التي ترمى بقاياها وصناديق خضراواتها في حدائق الأجنحة والمنحنيات. كيف تتألف «مزبلّة» مع حديقة، أو لماذا لا يرفع عمال النظافة المرميات العشوائية منها، أو تتخلى البلدية عن «ديكورات» خضراء هشة لصالح أخرى شجرية؟

مغاليق الحوانيت

أعود إلى محلات شارع ركب (الرئيسي) ذات المغاليق المتنافرة. إما حديدية مسلحة ومصفحة ذات أقفال قديمة، وإما مغاليق متحركة بالروموت كونترول، وإما مغاليق من مشبطات معدنية ترى من خلالها محتويات المحل. يحلو لك المشي آخر الليل في الشارع الرئيسي، فتصطدم عينك بمغاليق صارمة - صادمة. ولو تركوا ضوءاً خافتاً خلف مغاليق من مشبطات معدنية، لفكر الماشي أن يعود في نهار اليوم التالي ويشتري! صحيح، تمشي المدينة في المكان أسرع مما يمشيك الزمان، ورام الله (وسائر مدن الضفة) تهولون خلال زمن أوسلو بعد أن كانت بطيئة الخطى من قبل! لكنك ترصد بعيون يقظة كيف يجاور القديم الجديد، أو كيف يمسح الناس الجديد بعادات قديمة.